حكمة الخلفاء

روى الراغب الأصفهاني في كتابه (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء): تصدى رجل للرشيد فقال: إني أريد أن أغلظ عليك في المقال فهل أنت محتمل؟ فقال الرشيد: لا؛ لأن الله أرسل من هو خير منك إلى من كان أَشَرَّ مني فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

دخل إعرابي على الخليفة العباسي المأمون وأنشأ يقول:

رأيت في النومِ أني مالكٌ فرساً ... ولي وصيف وفي كفي دنانيرُ
فقال قومٌ لهم علمٌ ومعرفةٌ ... رأيت خيراً وللأحلامِ تفسيرُ
أقصص رؤياك في قصر الأمير تجد ... تحقيق ذاك وللفأل التباشيرُ

فقال المأمون: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

قعد المهدي قعوداً عامّاً للناس، فدخل رجل وفي يده نعل ملفوفة في منديل، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك.

فقال: هاتها. فدفعها إليه، فقبّل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم.

فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه: أترون أني لم أعلم أن رسول الله ﷺ لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها؟ ولو كذبناه قال للناس: «أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله ﷺ فردّها عليّ، وكم من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره، إذ كان من شأن العامّة ميلها إلى أشكالها والنصرة للضعيف على القوي، وإن كان ظالماً اشترينا لسانه وقبلنا هديّته وصدّقنا قوله، ورأينا الذي فعلنا أنجح وأرجح.

قال ثعلب: قلت للحسن بن سهل: وقد كَثُرَ عطاؤه على اختلال حاله: ليس في السرف خير، فقال: بل ليس في الخير سرف. فرد اللفظ واستوفى المعنى.

ذهب رجل إلى الملك وأنشده شعراً، فقال الملك: اطلب ما تشاء.

قال: هل تعطيني؟

فأجابه: أجل، لك ما تشاء.

قال: أريد أن تعطيني دنانير بمثل الرقم الذي أذكره في الآيات القرآنية.

فأجابه الملك: حباً و كرامة.

قال الشاعر: قال الله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فأعطاه ديناراً.

قال: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ فأعطاه دينارين.

قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ ﴾ فأعطاه ثلاثة.

قال: ولا ﴿ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ فأعطاه أربعة.

قال: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ فأعطاه خمسة دنانير وستة.

قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ فأعطاه سبعة.

قال: وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ فأعطاه ثمانية

قال: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فأعطاه تسعة.

قال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فأعطاه عشرة دنانير.

قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ فأعطاه أحد عشر.

قال: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ فأعطاه اثنا عشر.

ثم قال الملك: أعطوه ضعف ما ذكر واطردوه

قال الشاعر: لماذا يا مولاي؟!

قال: خفت أن تقول: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾.

قال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت أكرم أدباً ولا أكرم عشرة من أبيك، سمرت عنده ليلة فبينا نحن كذلك إذ عشي المصباح، ونام الغلام. فقلت: يا أمير المؤمنين قد عشي المصباح ونام الغلام فلو أذنت لي أصلحه.

فقال: إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه، ثم حط رداءه عن منكبيه وقام إلى الدبة فصب من الزيت في المصباح وأشخص الفتيلة ثم رجع. وأخذ رداءه وقال: قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

دعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى غدائه فقال له: قد تغديت. قال عبدالملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا تكون فيه بقية للطعام. فقال: يا أمير المؤمنين بي فضل، ولكني كرهت أن آكل فأصير إلى ما استقبح أمير المؤمنين.

أراد سليمان بن عبد الملك أن يتخذ كاتب الحجاج أبا العلا كاتباً له فقال له عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تعيد ذكرى الحجاج بن يوسف وتحيي سيرته باستكتابك كاتبه وجعله أمين سرك، فقال سليمان بن عبد الملك: يا أبا حفص، إني كشفت عنه فلم أقف له على خيانة، فهو لم يسرق في يوم من أيام الحجاج ديناراً ولا درهماً، فقال عمر: أنا أدلك يا أمير المؤمنين على من هو أَعَفُّ عن الدرهم والدينار من كاتب الحجاج، فقال سليمان: من هو يا أبا حفص؟!

فقال عمر: هو إبليس. لقد أهلك الحرث والنسل، وأشاع الضلال والفساد في الأرض، ولم يلمس درهماً ولا ديناراً! فقال سليمان: لقد تركناه بعد أن لزمتنا الحجة.

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه معروفا بالحكمة والرفق، وفي يوم من الأيام، دخل عليه أحد أبنائه، وقال له: يا أبت! لماذا تتساهل في بعض الأمور؟! فو الله لو أني مكانك ما خشيت في الحق أحداً.

فقال الخليفة لابنه: لا تعجل يا بني؛ فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في المرة الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه فتكون فتنة. فانصرف الابن راضياً بعد أن اطمأن لحسن سياسة أبيه، وعلم أن رفق أبيه ليس عن ضعف، ولكنه نتيجة حسن فهمه لدينه.

ومن مناقب الملك فيصل رحمه الله في نصرة رسول الله ﷺ ونصرة الشريعة، ودفع كيد الكائدين بردّ شبههم، ودحض مفترياتهم ما حكاه الدكتور تقي الدين الهلالي، فقال: قبل بضع سنين كنت مقيماً في باريس عند أحد الإخوان، وكنت قد سمعت أن الطبيب المشهور الجراح موريس بوكاي، ألّف كتاباً بيّن فيه أن القرآن العظيم هو الكتاب الوحيد الذي يستطيع المثقف ثقافة علمية عصرية أن يعتقد أنه حق مُنَزَّلٌ من الله ليس فيه حرف زائد ولا ناقص !!

وأردْتُ أن أزور الدكتور موريس لأعرف سبب نصرته لكتاب الله ولرسوله ﷺ، فدعوناه فحضر فوراً !!

فقلت له: من فضلك أرجو أن تحدثنا عن سبب تأليفك لكتابك «التوراة

والإنجيل والقرآن في نظر العلم العصري»، فقال لي: إنه كان من أشد أعداء القرآن والرسول محمد ﷺ، وكان كلما جاء مريض مسلم محتاج إلى علاج جراحي يعالجه، فأتم علاجه وشفي! يقول له: ماذا تقول في القرآن، هل هو من عند الله أنزله على محمد؟ أم هو من كلام محمد ﷺ نسبه إلى الله افتراءً عليه؟

فيجيبني: هو من عند الله ومحمد ﷺ صادق!

قال: فأقول له: أنا أعتقد أنه ليس من الله وأن محمداً ﷺ ليس صادقاً !! فيسكت.

قال: ومضيت على ذلك زماناً حتى جاءني الملك فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة السعودية، فعالجته جراحياً حتى شفي، فألقيت عليه السؤال المتقدم الذكر!!

فأجابني: إن القرآن حق وأن محمداً رسول الله ﷺ صادق!!

قال: فقلت: أنا لا أعتقد صدقه !!

فقال الملك فيصل: هل قرأت القرآن ؟

فقلت: نعم مراراً!!

فقال: هل قرأته بلغته أم بغير لغته؟ أي بالترجمة.

فقلت: أنا ما قرأته بلغته بل بالترجمة فقط!

فقال لي: إذاً أنت تقلد المترجم، والمقلّد لا علم له إذا لم يطّلع على الحقيقة، لكنه أخبر بشيء فصدقه، والمترجم ليس معصوماً من الخطأ والتحريف عمداً!! فعاهدني أن تتعلم اللغة العربية، وتقرأه وأنا أرجو أن يتبدل اعتقادك الخاطئ هذا !

قال: فتعجبت من جوابه!

فقلت له: سألت كثيراً من قبلك من المسلمين فلم أجد الجواب إلا عندك، ووضعت يدي في يده، وعاهدته على ألا أتكلم في القرآن ولا في محمد ﷺ إلا إذا تعلمت اللغة العربية وقرأت القرآن بلغته، وأمعنت النظر فيه حتى تظهر النتيجة بالتصديق أو التكذيب !!

فذهبت من يومي ذلك إلى الجامعة الكبرى بباريس (قسم اللغة العربية) واتفقت مع أستاذ بالأجرة أن يأتيني كل يوم إلى بيتي، ويعلّمني اللغة العربية ساعة واحدة كل يوم إلا يوم الأحد الذي هو يوم راحتي، ومضيت على ذلك سنتين كاملتين لم تفتني ساعة واحدة، فتلقيت منه سبع مائة وثلاثين درساً، وقرأت القرآن بإمعان، ووجدته هو الكتاب الوحيد الذي يضطر المثقف بالعلوم العصرية أن يؤمن بأنه من الله لا يزيد حرفاً ولا ينقص، أما التوراة والأناجيل الأربعة، ففيها كذب كثير، لا يستطيع عالم عصري أن يصدقه.

ويقول وزير الخارجية الأمريكي الأسبق كيسنجر في مذكراته أنه عندما التقى الملك فيصل في جدّة، عام *1973* في محاوله لإثنائه عن وقف ضخ البترول، رآه متجهماً، فأراد أن يستفتح الحديث معه بمداعبة.

فقال: إن طائرتي تقف هامدة في المطار بسبب نفاد الوقود، فهل

تأمرون جلالتكم بتموينها، وأنا مستعد للدفع بالأسعار الحرة؟

يقول كيسنجر: فلم يبتسم الملك، بل رفع رأسه نحوي، وقال: وأنا رجل طاعن في السن، وأمنيتي أن أصلي ركعتين في المسجد الأقصى قبل أن أموت فهل تساعدني على تحقيق هذه الأمنية؟